منح الصلح

نهاية استعماريين

عام ١٩٥٦ ، وجه النضال العربي ضربة قاسية للاستعمار الاوروبي القديم . فعلى اثر العدوان الفرنسي البريطاني على السويس ، وجدت الامبراطوريتان الاوروبيتان نفسيهما في عزلة عن العالم . وكانت نتيجة هذه العزلة التي فرضها صمود مصر والعرب ان الاستعمار القديم لفظ اخر انفاسه ، وانتهى عصر الامبراطوريات .

عام ١٩٧٣ ، تقف الولايات المتحدة في نفس المكان الذي كانت تقف فيه فرنسا وبريطانيا ، وتعاني ، دوليا ، العزلة اياها . فليس وراء الولايات المتحدة من يشدها في موقفها من اسرائيل الا دولة واحدة هي « جنوب افريقيا » التي صرح وزير خارجيتها بانها تؤازر اسرائيل لانها في افريقيا ما هي اسرائيل في اسيا ؟

وهذه العزلة الدولية التي تجد اميركا ذاتها فيها هي من صنع النضال العربي ، ومن صنع المعركة الاخيرة بنوع خاص ، التي سيكون اثرها في تصفية الاستعمار الجديد مشابها لاثر معركة السويس الاولى في تصفية النفوذين الفرنسي والبريطاني .

فكأن التاريخ يشاء ان تقترب الامبراطوريات الاستعمارية من نهايتها ، حين تبلغ ذروة الظلم للحق بتحالفها الاكمل مع اسرائيل ، اوضح كيان استعماري في العالم .

وهكذا يكون النضال العربي قد لعب الدور المميز في تحرير الانسان من الاستعماريين القديم والجديد معا .

ان اميركا تستسلم في موقفها الحالي للعمى المطلق . فهي لم تعتبر بما جلبه على فرنسا وانكلترا اشتراكهما عام ١٩٥٦ في حرب واحدة الى جانب اسرائيل ضد العرب .

لقد قام في انكلترا وفرنسا من حاسب ايدن وغي موليه على عدوان السويس وكان المأخذ الرئيسي عليهما ، والذي كان مقتلهما السياسي ، توحيد قضيتهما مع قضية بن غوريون ، وخوضهما معه الحرب ضد منطقة باسرها من العالم ، قوية وعريقة وذات امكانات لا تحد .

واليوم تقترب في اميركا الساعة التي سينهض فيها من الاميركيين من يحاسب نيكسون على بقاء دولته دون دول العالم جمعاء في صف واحد مع اسرائيل . ان اقتراح مانسفيلد زعيم الاغلبية الديمقراطية في مجلس الشيوخ الاميركي بعقد مؤتمر قمة دولي لمواجهة قضية الشرق الاوسط يحضره الاتحاد السوفياتي ودول اوروبا واليابان هو صرخة الم من العزلة الراهنة التي تعيش فيها اميركا ، وهو بداية التخلي الشعبي والرسمي الاميركي عن سياسة نيكسون الانفرادية الخرقاء في دعم اسرائيل .

ان اميركا تستفيق حاليا على حقائق جديدة في البلدان العربية ، وبالتالي في العالم كله ، انها تفاجأ بانها عاجزة عن ان تفرض حتى على اصدقائها من الحكام العرب الخروج من انتمائهم العربي . انها تفاجأ بمواقف فيصل والحسن والسالم ، وكل من وضعته في السابق في جيبها من الاصدقاء ، وقد وجدتهم يختارون واقع امتهم على الرباط مع الاجنبي . فلا مكان في ارض العرب ، وخصوصا في لحظة التحدي الذي تحدث عنها الرئيس السادات ـ الا الاوفياء للمصير العربي .

ان المفاجأة الاميركية هذه ستستمر وستتضخم مع استمرار المعركة ، الى ان تتحقق اميركا نهائيا من ان كل طاقة عربية وكل ثروة عربية وكل كيان عربي اصبحت بكليتها في صميم المعركة .. عندئذ ستندم اميركا على تخلفها عن فهم الامة العربية وادراك القوانين الثابتة التي تحكم التاريخ .

اما العرب فهم واثقون بانفسهم ، معتزون لا بالنصر وحده بل بكونهم يعملون من خلال نضالهم على ايجاد عالم اشد صلة بالحق والعدل واكثر تحكيما للعقل وارتباطا بالحضارة .

وكما كان تحرير فرنسا وانكلترا من نزعة الاستعمار القديم في مصلحة الشعبين الفرنسي والانكليزي ومصلحة الانسانية ، كذلك سيكون تحرير اميركا من نزعة الاستعمار الجديد في مصلحة شعب اميركا .

وسينظر كل اميركي في المستقبل بخجل الى اليوم الذي كانت فيه اميركا تحارب الى جانب اسرائيل ، ضد امة هي من جميع الوجوه محور العالم الثالث كله .

المحرر
١٨ تشرين الاول

النصر ليس مفاجأة

لم يستطع احد في الغرب ، باستثناء الولايات المتحدة الاميركية ، ان ينكر على العرب هذه المرة حقهم في مباشرة الحرب ضد اسرائيل. ذلك ان اسرائيل ذهبت في اعتداءاتها وعنجهيتها الى ابعد مما يطيق حتى اصدقاؤها . وكانت الحركة الدبلوماسية التي مهدت بها مصر للمعركة في عواصم العالم موفقة جدا ، ومن النوع المرن الذي تتوافر فيه عناصر المخاطبة العقلانية الناجحة للرأي العام العالمي. وركزت هذه الحركة جهدها على ابراز استخفاف اسرائيل بقرارات الامم المتحدة ، وعلى تأكيد حق العرب في القيام بمبادرة يحررون بها ارضهم . وحرصت القيادة العربية ، من جهة ثانية ، على ان لا تخوض المعركة الا وقلوب العرب جميعا الى جانبها . فجاءت المصالحات العربية التي سبقت الحرب تنشر بين العرب شعوبا وحكاما جو الولاء للهدف القومي الكبير ، او على الاقل ، حس الواجب بمؤازرة المعركة التي تصدت لها مصر وسورية .

وكانت البراعة الكبرى في النشاط السياسي الممهد للمعركة هي الايحاء للانظمة جمعاء بان انتصار مصر او سورية على اسرائيل ليس انتصارا على العدو ، وحده ، وانه ليس لحاكم عربي او فرد في طبقة ان يعتبر نفسه مهزوما بتحقق نصر عربي .

من هنا جاءت المعركة العسكرية التي تعاهدت على خوضها

سورية ومصر في افضل الظروف الدولية والعربية للنصر . فالعرب جميعا مندفعون فيها ، والرأي العام الدولي مقتنع بسلامة اهدافها.

لقد كان سر النصر الاول الامانة الكاملة التي التزمت بها القيادة العربية في دراسة تجربة ٥ حزيران وتلافي الاخطار والنقائص التي انطوت عليها . فالرئيس السادات الذي شارك الرئيس عبدالناصر الحكم كان خير من يستطيع الافادة من التجربة الغنية الماضية ، وكان خير من يؤمن للمعركة شروط نجاحها .

والحق ان المرحلة السابقة لمجيء السادات الى الرئاسة كانت مرحلة تاريخية حافلة بالانجازات الوطنية والاجتماعية . ولكن جانب تأجيج الثورة السياسية والاقتصادية كان اغلب من جانب الاعداد للحرب ، وكأن الثورة كانت في غنى عنه ، او كانت مغنية عنه . وبسبب طبيعة المرحلة الماضية كمرحلة توعية وتحريك سياسي، كثر ، احيانا ، الكلام على حساب الفعل ، واصطبغ بطابع الاستفزاز والمبالغة الضارين على الصعيدين الدولي والعربي معا ،وحصل غلو في التشكك في صدق وطنية بعض العرب انفسهم ، حتى من غير ذوي المصالح ، ولم يعط الجميع فرصة المشاركة في النهوض بأعباء الدفاع عن المصير .

وقد سلك السادات منذ الساعة الاولى لوصوله الى السلطة العليا خط التعبئة الوطنية داخل مصر ، فحد من تسلط الاجهزة على الناس ، ورفع الضغط عن بعض الفئات الاجتماعية ، وخارج مصر، اقام علاقات مع العرب الاخرين متسمة بقدر كبير من الانفتاح والديموقراطية ، وعلى الساحة الدولية تعامل مع العالم ككل ، ولم يدخل في اسر احد ، ولم يسمح لاحد ان يلونه بلونه الخاص .

وكان في ذلك كله محققا ما كان الرئيس عبدالناصر قد بدأ يفكر به بعد الحرب بل يطبقه ، وسط حديث المراقبين بان عبد الناصر قد خرج من المعركة انضج مما دخلها .

ان النصر الذي حققه العرب حتى اليوم هو، في بعض جوانبه شهادة على ما يمكن ان تفعله الارادة الوطنية المنبثقة من التراث الوطني والمستفيدة من دروسه وعبره . فلولا الماضي ومعرفته معرفة حقيقية ، بحسناته ونواقصه ، لاستحالت على العرب وثبتهم الحالية.

ولقد انتصر السادات لانه كان عبدالناصر ولم يكنه في الوقت نفسه.

والنصر هذا الذي تم لم يكن مفاجأة ، كما تردد . فليس بكثير على الامة العربية وطاقاتها وعظمتها ماضيا وحاضرا وعمق احساسها بأصالتها ورسالتها ان تحارب مثلما حاربت ، شرط ان تعيش بقلب دافيء وعقل مفتوح تراثها الوطني وتتكب على التجارب التي مرت بها لتأخذ منها ما تأخذ وتترك منها ما تترك .

ولعل اهم ما قدمته هزيمة حزيران للامة العربية تلك العين الوافعية التي ترى وتحلل وتعتبر ، فلا تقع اليوم في اخطاء الامس، وتلك الرغبة القومية العارمة لوضع كل ذرة من قوة العرب وطاقاتهم في خدمة المعركة ، فلا يكون غير الولاء للمعركة مقياسا لابعاد عربي وتقريب عربي ، واخيرا ذلك الدرس الاكبر ، وهو ان لا توسط في مركز العرب الدولي ، فهم اما مهزومون ومهانون كما لم ينزل هوان بأمة ، واما منتصرون ، وآخذون بالضرورة مكانا مرموقا في العالم . ولعل مصيرهم يختلف في ذلك عن مصير كثير من الامم التي تمكنها ظروفها من هوان اقل اذا انهزمت ، ومن تألق اذا انتصرت .

١٨ تشرين الاول — الصياد

أميركا والكبرياء العربية

لم يكن صعبا على الولايات المتحدة ،في وقت من الاوقات ، ان تدرك ضخامة مصالحها الاقتصادية وغير الاقتصادية في البلاد العربية . ولا هي بحاجة الى جهد كبير لتقدر احتمال خسارتها لهذه المصالح من جراء اصطدامها مع ارادة التحرر العربية .

وانما كان الصعب على الولايات المتحدة ان تجد تلك الصيغة من التعامل مع العرب التي تتفق مع نظرة العربي الى نفسه والى وزن امته في العالم .

فاميركا عاجزة عن فهم سر الكبرياء القومية التي لم تتخل عنها هذه الامة في احلك مراحل حياتها .

وبعض الاميركيين — من المسؤولين والمفكرين — يسردون بدهشة تجاربهم الفاشلة في التقرب من بعض الدول العربية ، وعلى الاخص تجربة بالذات هي محاولتهم في مطلع عهد ثورة يوليو للتقرب من مصر، ويبدون الاستغراب من ان هذه المحاولة لم تثمر على الرغم من سخاء العروض التي قدموها يومذاك !

واليوم ، وقد شاء الرئيس السادات ان يحاور اميركا من مركز القوة ، تسنح الفرصة لتحليل سبب فشل هذه المحاولة ، لا تفاؤلا بموقف ممكن للولايات المتحدة ، بل تصويرا لقضية هذه الامة ، في ابعادها النهائية ، مع اميركا وغير اميركا من دول العالم ، ومع نفسها وتاريخها وقيمها اولا ..

وعندما قام عبدالناصر والسادات ورفاقهما من الضباط الاحرار، كانوا جميعا — وخصوصا عبدالناصر والسادات — من المعجبين بشخصية المصلح التركي الكبير مصطفى كمال ، وكانوا شديدي التقدير لتجربته الاصلاحية التي كانت تعتبر في زمن ما نموذج التجربة الاصلاحية الناجحة في بلاد الشرق . فقد حقق مصطفى كمال لامته في فترة تاريخية قصيرة قفزة واسعة على طريق التقدم والاخذ بمقومات الحياة العصرية . وكانت صداقة السادات لعزيز علي المصري وهو البطل العربي لاكثر من انقلاب اصلاحي في زمن الدولة العثمانية ، تجعله على اتم اطلاع على الجذور الحقيقية للحركة الكمالية وعلى اهدافها الوطنية التقدمية .

كانت نظرة الثورة المصرية هي هذه الى مصطفى كمال وانجازاته ، عندما تقدم الاميركيون من الثوار المصريين يعرضون عليهم ، بشكل مفاجيء ، ان يكونوا مصطفى كمال مصر ، وان تكون الدولة التي ينشئون نسخة اخرى عن الدولة التركية ، وهم بالمقابل — اي الاميركيون — مستعدون لكل مساعدة !

وكمن تعرض عليه على غير توقع اضخم الاغراءات ، كان رد فعل عبدالناصر ورفاقه الذين كانوا يومذاك في اول عهدهم بالسلطة ولم يتكون لهم بعد رصيد من الانجازات ، ان ارتابوا بالعرض السريع السخي وخرجوا بالقناعة الثابتة انه لو لم يكن مقدرا لثورة مصر ان تلعب دورا في المنطقة اعمق واوسع من دور مصطفى كمال ، ولو لم تكن تناديهم ، في مصر والبلاد العربية ، قضية اضخم من قضيته، لما جاءتهم اميركا وفي يدها كل هذه العروض ..

وهكذا رفض عبدالناصر ورفاقه اللويح الاميركي بالمساعدة على اقامة دولة عصرية ، في المنطقة ، ولكن محدودة الاثر في محيطها ،وثانوية في الحساب النهائي ، واثروا المصير الاخر ، مصير الارتباط بحلم الدولة العربية ، الكاملة الكبرياء القومية والمنتشرة الاشعاع الانساني ، الدولة الكبيرة الشريكة في تقرير مصير العالم .

هذا هو السر الاعمق للخلاف الاميركي العربي . اميركا ، في اقرب حالاتها الى التعاطف مع العرب ، لم تستطع ان تفهم عن العرب انهم اكثر من دويلات متخلفة خليقة بان تتجاوب مع اول تلويح لها بالمساعدة ، كائنة ما كانت هذه المساعدة ... مفروض في الدول العربية في زعم اميركا ، ان تقبل ما تعرضه عليها ، وان ترحب به، لان البديل الوحيد عنه هو الحرمان ..

اما العرب فهم ينظرون الى انفسهم بمنظار آخر ، هم امة عريقة ووطن ضخم كبير . هم وجود غير قابل لان يعيش في ظل وجود اخر، سواء اكان اميركيا ام اسرائيليا ام غيرهما ، يحاول ان يكون وصيا على درجة نموهم وتقدمهم وقوتهم ، ويعتبر نفسه مسؤولا عن تقنين التطور العربي في كل المجالات ، وفقا لمبدأ ان استمرار حياة المستغل شرط لاستمرار استغلاله !

اميركا لم تفهم اختلاف الامة العربية النوعي عن الكثير من الامم التي نجحت فيها ، ولو الى امد ، السياسة الاميركية ساعدت

في ابقاء الدول والشعوب في اطار تقدم محدود ومضبوط ، حيث استحال ابقاؤها في حالة التخلف الكامل .

اميركا لم تفهم مثلا تجربة بريطانيا الاستعمارية .. استطاعت بريطانيا ان تدخل الهند ونهرو الى الكومنولث ، ان تجعل من امة تعد ٥٠٠ مليون تقبل بتاج الملكة تاجا لها ، وان تدخل جنوب افريقيا والجنرال سمطس برضاهما تحت ظل التاج البريطاني ، وان تجر كندا الى عضوية الكيان الدولي الكبير ، ولكن بريطانيا لم تستطع ان تقنع شيخا عربيا واحدا في اقصى منطقة عربية ، سلطانا من عشرات السلاطين ، اصدقاءها بل محبيها ، بتقبيل فكرة الانضمام الى هذا الكومنولث .. ذلك انه كان من المستحيل على اي عربي تصور عزته مرتبطة بعزة التاج البريطاني ، وكيانه القومي ذائبا في كيان اخر..

واميركا اليوم تستمر في عدم الفهم .. لانها تتحدث عن المفاجأة في التحرك المصري والسوري ، وفي الارادة العربية للقتال . .

اي مفاجأة ؟

ان المفاجأة في نهوض امة عريقة وعميقة الحس باصالتها وتراثها ومليئة بالكفاءات والطاقات لتحقيق جزء بسيط من حقوقها ؟

انتم امام امة مفروس في ذاتها الايمان المطلق بنبلها ، والحرص الكامل على شخصيتها ، وستكثرون عليها ان تندفع من اجل الحفاظ على وجودها !

انتم امام امة كل عرق فيها يرفض الا ان تصنف في طليعة الامم وترفضون ان تسلموا لها حتى بازالة اثار العدوان !

انتم امام امة لكم ولغيركم من المستعمرين تجارب معها ،وهذه التجارب تدل ، لو أمعنتم في فهمها ، انها لا تستطيع ان تتقبل اي فكرة تريد ان تجعل من العرب دولا عادية فكيف بجعلهم في مستوى اقل من الدول العادية .

لقد رفضت الثورة المصرية ان يعاملها الغرب بمثل ما عامل به حركة مصطفى كمال الاصلاحية . وكان المغزى الاصرار على الدور التاريخي المرموق لا لمصر وحدها بل للامة العربية كلها .. هذا هو الشعور الداخلي الثابت عند كل عربي حتى وهو يعاني الوهن والضعف في واقعه لانه ينظر اليهما على انهما حالة موقتة طارئة على جوهر امته . وهذه هي الحقيقة العميقة التي لا بد ان يتعامل معها اولا كل من يريد التعامل مع العرب .

الانوار ٢٠ تشرين الاول

خطوة الى الامام

زمن المعركة ، تظهر صورة الامة العربية على حقيقتها ، وتتجلى المكانة الفريدة التي لقضيتنا في العالم . ويجب أن لا نترك الايام تطمس هذه الصورة ، وتعود بنا الى الشك بقدراتنا .

لقد اصبح الموقف من العرب ، كما أكدت فترة المعركة ، ومن قضية فلسطين بنوع خاص ـ من اسباب العظمة او التردي ، النجاح او الفشل ، في حكم أي حاكم من حكام العالم ، حتى اولئك الذين لا تبدو العلاقة واضحة بين أوضاع بلادهم الداخلية والاوضاع العربية .

وقد كان من أسرار عظمة الجنرال ديغول ، ومن العوامل التي مكنته من تحقيق الوثبة المعاصرة في فرنسا ، الفكرة التي يحملها عن العرب وطاقاتهم ووزنهم في العالم .

ولو لم يكن ديغول يحمل تلك الفكرة ، لما انطلق في دوره التجديدي التاريخي من حل القضية الجزائرية ومد اليد الى العرب والبقاء على صداقته لهم وتأييده لحقوقهم حتى ما بعد هزيمة حزيران . ويصعب الآن ان نتصور انه كان امام فرنسا غير ذلك الطريق الى بعث ذاتها.

وهكذا ، فبموقف ايجابي من العرب شق ديغول الطريق لنفسه ولوطنه ، بعد ان حارت الطبقة السياسية الحاكمة في الاهتداء اليه .

وبالنسبة الى الاتحاد السوفياتي نفسه ، لعب التمسك بصداقة العرب دورا مشابها . فلو سيطر على قادة الاتحاد السوفياتي اليأس من قدرة العرب على النصر ـ كما كانت تريد بعض الاوساط داخل الاتحاد السوفياتي ـ لضعفوا على الساحة الدولية ، وخسروا جزءا كبيرا من تألقهم في العالم ، خصوصا بعدما آل اليه الامر في الصين ، وبعد أن نشأت في دول اوروبا الشرقية المشاكل التي نشأت .

لكن سلامة الفكرة عند قادة الاتحاد السوفياتي عن العرب وامكاناتهم ودورهم كانت تمد الاتحاد السوفياتي بقدرة دائمة على لعب الادوار العالمية والبقاء في المرتبة الاولى من دول العالم .

ومع ان فضل السوفيات كبير بل اكبر من كبير على النضال العربي ، الا ان السوفيات اخذوا ، بالمقابل ، الشيء الكثير من سياسة اليد الممدودة الى العرب .

بالنسبة الى الولايات المتحدة ، فان النظرة السلبية التي ينظر بها قادتها الى العرب وقضاياهم كانت دائما من امارات الضياع والتخلف والفساد في السياسة الاميركية .

ولا نغالي اذا قلنا ان من أبرز الادلة التي يمكن ان تساق على نوعية الحكم السائد في الولايات المتحدة طريقته في التصرف نحو العرب .

وعندما كانت تتوالى في الفترة الاخيرة اخبار عزل نيكسون للقضاة الاميركيين اصحاب المواقف المبدئية في قضية ووترغيت ، جنبا الى جنب مع اخبار المساعدات بالبليارات لاسرائيل المدانة من العالم اجمع ، كان كل عاقل يستمع ويحلل ويستنتج كم اصبحت الولايات المتحدة بحاجة الى نهضة ترد حكامها الى أبسط القواعد العقلية والاخلاقية في سياسة الحكم .

فالوضع في الولايات المتحدة متخلف فعلا ، سياسيا ، لا عن الدول المختلفة عنها في نظامها السياسي ، بل عن الدول الآخذة بنظامها نفسه .

وقد عرفت فرنسا ، في الفترة الاخيرة من حياتها ، على يد ديغول وبومبيدو ، نهضة وضعتها على طريق داخلي ودولي معقول .

وعرفت المانيا ، على يد برانت ، شيئا من الارتداد الى خط موزون في العلاقات الدولية .

واغلب الدول الراسمالية ـ فضلا عن الاشتراكية ـ جددت من عقليتها واساليبها ونظرتها الى العالم بشكل آخر .

... الا اميركا ، فان كل ما فيها ينادي بحاجتها الماسة الى نهضة من هذا النوع ، وأبرز سمات هذه النهضة وصول درجة معينة من فهم العالم الثالث ، وخصوصا فهم الامة العربية ، الى عقلية حكامها .

فبدون فهم العرب ، يستحيل على اميركا ان تصوغ تلك السياسة الدولية المتمدنة غير القائمة على الفرض ، التي تدرك كيف تتعامل مع الشعوب ، وتعرف كيف تخلق مصالح مشتركة بينها وبين غيرها من البلدان والقارات .

ولا شك انه لو دامت الحرب اكثر مما دامت ، فاستمرت الظواهر الاميركية غير المحدودة في دعم اسرائيل ، لاحس كل اميركي بعمق حاجة بلده الى نهضة عاجلة تضع شيئا من العقل والضمير في تصرفات حكامه ، ولخرجت التظاهرات في نيويورك وواشنطن وسان فرنسيسكو تطالب بقطع المساعدات عن اسرائيل ، ووضع حد للحلف العدواني بين اميركا واسرائيل . وكان ذلك من شانه ان يكمل في الولايات المتحدة الوعي الذي خلقته فيتنام ، ويجدد الولايات المتحدة سياسيا ، ويزيحها ، لمصلحة شعبها ومصلحة شعوب العالم ، من طريق تحرر الشعوب ، ويعطي الفضل التاريخي للامة العربية بانها بنضالها قد ساهمت وهي تعمل لتحررها في نقل العالم خطوة جديدة الى امام .

وهكذا ففي وسعنا القول ان الثقة بقدرات الامة العربية قد تعدت بعد اليوم ان تكون فرضا على كل حاكم عربي يستحق هذا الاسم ، لتصبح فرضا على كل حاكم في العالم ، يريد ان يحكم في بلاده نفسها بعيون مبصرة .

الصياد ٢٥ تشرين الاول